ميراث الأخير



إلياس فركوح

إلياس فركوح

ميراث الأخير

المحتوى

****

إشارة

كم من موت تحتاج الطريدةُ
لكي تنسى؟
كم من ذاكرة يطلقها الصياد
من عقالها
كي يعود إلى طفولة وعيه؟

إلياس

النص بين الذات والتيه

د. أمينة أمين

" الرواية والقصة القصـيرة تتـذكران الماضـي مجبـولاً بفيوضات الخيـال وميـاه الأشـواق المسـتحيلة، ونابضـا باختلاجات الأحلام الشخصية التي نهضت على عافية فتية ثم تحطمت فوق خيبة مشاريعها..."

إذا كان ما ترمي إليه كتابـات اليـاس فركـوح الروائيـة والقصصية بتعريفه الشخصي؛ فلنا أن نقف لنتسـاءل: مـاذا تتطلع إليه هذه النصوص؟ أتمثل له جنس كتابة مختلف يمكنه من التعبير بطريقة أخرى عن أحلامه التي باتت مستحيلة؟ أم أن النص الشعري يشكل له انطلاقة لروح سجينة تستطيع أن تحلق بأحلامها في فضاء سماء لم تعرف الخيبة؟ لا شـك أن في هذه المجموعة تكثيف لرؤية الكاتب إلياس فركوح وعالمه الخاص، حيث تتناول ميراث الأخير، أسوة بكتابته الروائيـة والقصصية، ثيمة البحث عن الذات فكما في أسـرار سـاعة الرمل أو الملائكة في العراء فإن الواقع يمتـزج بالخيـال، وتندغم الذات بالآخر، وكما في أعمدة الغبار وقامات الزبـد، حيث يتميز بإبداعه في تجسيد الواقع مـن خـلال أشـواق

الإنسان العصري الذي يشهد ضياع الأحلام الفردية متكبـدا شروط واقع يجافيها بأحداثه اليومية، ممتزجا بذاكرة أثقلهـا تاريخ طويل قوامه الإحباطات النابعة من كونه مكبـل فـي الحاضر ويقف عاجزا أمام بطولات الماضـي؛ تـأتي هـذه النصوص الشعرية كخلاصة لتجربته، فيحملها عبء تجسـيد عالم من المتاهات المتعددة يتوق من خلالها لانطلاقة جديـدة مبعثها هذه الكتابة الإبداعية التي تعتبر بمثابة وسيلة لتجـاوز المألوف والسائد بحثًا عن ذلك الذي لم يأت بعد". (١)

1

تنقسم المجموعة، بحسب رؤيتي إلى ثلاثة أقسام يتمثل لنا في القسم الأول الصراع مع الآخر الذي تجسده المرأة، غالبا، في هذا القسم يرد الرجل إلى آدم وتُحال المرأة إلى حواء، كأنما هي محاولة للعودة إلى أصل الأشياء، أو رجوع إلى المنبـع للبحث من هناك عن الهوية الذكورية المفقودة في الحاضـر، وذلك نتيجة وعي الرجل بأن المرأة هي الآخر الذي يصعب أو يستحيل عليه التوحد معها لعجـزه اسـتيعاب كينونتهـا فالصراع يتمثل في أنه يراها الآخر الذي يعكس تفـرده؛ أي أنه يرى نفسه فيها بمثابة المرآة التي تعكسه فيفشل فـي أن

يراها كما هي بهذا الإدراك يبدأ الصراع وينتهي به في ثنية الحليب إلى الاعتراف بأنها.

الثنية التي لم تكن

أبدا

إلا

في

رأسي

إنه اعتراف بهواجسه الداخلية التي افتعلها بنفسه، دون لـوم المرأة على ذلك؛ إذ هو يشير فقط إلى ذاته، كونه، في واقـع الأمر، لم ير غيرها - وهنا يكمن التحول الشعري بمفهـوم الخطيئة عن معناها الأول ليثار إلى إشكالية التمحور حـول الذات لذا تغلب على هذه النصوص النظرة إلى الـذات مـن خلال "الخطيئة ففي امرأة المرآه يبدأ النص بطلب المغفـرة: وكم من الشفاعات يكفي لأجمع / ثمن المغفرة ؟ ".

ثمة معاتبة للذات ومحاولة النظر إليها من خلال الآخـر، إذ نراه يعترف بأن المرأة مرآتي فالمرآة / المرأة لا تعكس إلا الرجل كون النظر إلى المرأة لا يعكسها بقدر ما يعكس لـه اختلافه عنها، لذلك فإنه كلما نظر إليها:

يحتفل بأجراسه

يصلصل كلما انتثرت

فليس ثمة سماع سوى سماع نفسه في غيابها، إذ يجـد أنـه يعتق في ركن سهوتها"، أي في تلاشي الوعي بهـا لـذا لا مناص من أن يصارع التوحـد معهـا، إذ يسـتحيل عليـه الالتحاق بها، فهو: سؤالها المشبوه تدليني كالسبحة / مفروطة حباتها بلا التئام" وكذلك فإنه الذات التي:

ذات صيف

لم تحتطب

لشتائها المرتقب

هنالك خوف من كون عالم الآخر هو المرآة أي الشبح الذي لا يستطيع أن يراه إن مفهوم الذات الذكورية يرتكـز علـى الاختلاف عن الآخر كما تنبع المفارقة من كـون الآخـر لا يرى لذا فإن الصورة التي تعكسها المرآة هي صورة وهمية فيكون أن يتخاطف ضياه في غلالة البصر" ولأنه لا يستطيع التحكم بالرؤية رغم محاولته النظر إلى ذاك الشبيه الـذي لا يمثله نجده يحاول التحكم في الحركة: أوقفه حـين يلهـو / وأوقظه لما يغفو/ لنمضي. "

إن الالتحاق بالآخر لا يثمل أو يفضي إلى التوحد معه بقدر ما يعتمد على الإثنينية كما أن إدراك ذلك يعمل على خلق الشعور بالذنب، فيعود ليدفع ثمن اختلافه، إذ يرمي نفسه على زجاج مرآتها: على الفضيحة الغاصة بوجهي": فالفضيحة بتعريف الكاتب هي فقدان التواصل والذي يعني الكشف الكامل[٢] في حد ذاته فكلما نظر إليها وأدرك أنه لم يتوحد بها كما لم يدرك نفسه أيضا فينحسر رويدا وندامة / لهاثًا وخسارة وينكفئ على العماء، فالنص اعتراف بعماء النفس، بجهلها وعدم قدرتها على رؤية الآخر الاختلاف عنها يتأتى الشعور بالذنب وطلب المغفرة من نظرته إلى نفسه التي تحتم عليه أن يجعل من المرأة مرآه لذلك نقرأ في السطر الأخير إقرارا يقول:

"هكذا تمحي الذنوب" فإن يقر بأنها "اعترافات لائذة بكهولة الذاكرة" يكون قد كفر عن الخطيئة وبذا يعود بالذاكرة للمرآة الأولى ـ مرآة آدم التي عكست الاختلاف؛ فيكرر:

هكذا لا تكون المرآة

أبدا

ولا نكون

فبما أنه لم يستطع أن يعطي المرأة حقها في الرؤية فلقد عجز والحالة هذه، عن الالتحاق بنفسه، وهكذا يقبع في عمائه.

تستخدم المرآة مرة أخرى في السهرة مالحة. يدل العنـوان، في حد ذاته، على خيبة الأمل فالسهرة لم تنته باحتفال التوحد مع الآخر/ الآخرين المرأة أو النفس، ولكنها انتهت بملوحة: أي بشيء غير مستساغ يبدأ النص بـ :

فوح اشتهائي يطفر منك

لامعا

ثمة ضرب من المراوغة في مثل هذه البداية؛ إذ هو لم يحدد ما يشتهي بقدر ما هي المرآة التي يرى فيها ما يريده "لامعا" أي أنها توقظ فيه ما يشتهيه هنا تتجسد صورة المـرأة بمـا يسمى الـ"Jouissance"، أو ما يمثل المتعة في عين الرجل الذي سرعان ما يشعر بالذنب: "ويجول كالخطيئـة راعشًـا" ينبع الذنب لديه مرة أخرى من كونه يعامل المرأة كـالآخر الذي لا وجود أو وظيفة له سوى عكس رغبـات الرجـل، فيؤكد أنه كلما نظر إليها:

إن تحامقت أو شططت

اغتربت

فيصعب عليه رؤية ما تعكسه المـرآة بوضـوح، حيـث أن إدراكه لخطيئته يعكر الصورة، لذا نراه: "ينتكس كالخريف.. ويحط.. منهدا"، وعبثًا يحاول إدراك أن ما يبقى:

هو فوحك يبقى

حتى انطفائي الكتيم

أي أن صورتها هي التي تسود، فيستعصى عليه أمر رؤيـة نفسه، إذ أنه ينازع وجود شخص آخر، وفي الوقت ذاته يجد نفسه مجبرا على الاعتـراف بوجودهـا المغـاير لوجـوده فيتساءل:

ألهذا طعم السفرجل واحد ؟

ـ مر وشهد

التساؤل اعتراف بعذاب وعذوبة الآخر: فهو شهد لأنه توحد مع ذاته، ومر لأن ذلك التوحد لا يمكن إتمامه دون اثنينيـة الأنا والآخر ـ أو المرأة والرجل، لذا يقول:

الشهقة المفاجئة التي تضربنا

أبدا وبغته

فهو صراع لا ينتهي مع الآخر يؤدي بهما إلى الغيب "فيغيب" أي الغيب عن الذات وعن الآخر مما يـؤدي، بالتـالي،إلى إمكانية حدوث المعرفة:

يرفعنا خمرنا إلينا

ثم نكتشف انحدارنا

إنها السكرة التي تذيب الذات "لما نتبدد رويدا" وتذيب الآخر فتزول الإثنينية في الجزء الأخير، نقف حيال عتاب للـنفس التي أبت الآخر، ولومها لإحساسها بالمرارة:

لماذا لا نكون

في برزخ الخواء الشفيف

للمرة الأولى نجده راغبا مريدا أن يكون معها، فهو يتسـاءل عن استحالة أن يكونا هما الاثنين - وليس هو والمرآة - إذ دون ذلك سيظلا "ما تذوقا الحـلاوة ": أي الوحدانيةالحقيقـة التي لا تكتمل سوى بهما لذا، ينفرج الجزء الأخير عن فضاء جديد في عينيه مع الكون:

ساهيا عنا

وغافلاً

في حراك سوانا

فها قد توحد بها حتى وصل إلى درجة الغفلة التـي محـت الذنب تتكرر ثيمة الأنا والآخر في خشية. فالنص يعبر عـن خشيته (الرجل) على الآخر (المرأة) فهو يخشى على مسرات الآخر أن تتطايرها " جادة الرشد"، ويخشى على حزن الآخر من "عثة الفساد"، إلى جانب خشيته على الأصابع الصـغيرة من قرضة الأسنان". إنه يحاول أن يحمي الآخر من المستقبل ومن الاصطدام بالحياة في الجزء الأخير يقول" أخشى عليك التآكل"، فهي إذ خشية زوال الحال: خشية الـوعي والإدراك ويضيف "أخشى عليك منك" فهو هنا يخشـى علـى الآخـر إدراكه لنفسه، ولذا يختتم "أخشى علي" هكذا يتكشف لنـا أن خشيته على الآخر ليست سوى خشيته على نفسـه؛ فـالآخر هو، وهو الآخر، وكونه يحاول أن يصون الآخر إنما هـي محاول لصيانة النفس فالخشية هي الخشـية مـن المعرفـة وإدراك ما في دواخل النفس: الخشية هي الخشية من وعيـه بذاته وخشيته من وعي الآخر أيضا؛ إذ ستتهشم المرآة مـرة أخرى.

يستمر البحث عن الذات ومحاولة الإلمام بدواخلها في كنـت الذي أرى يبدأ مرة أخرى بالآخر فيقول: " لن أعريك منك "،

في هذه المرة لا يريد أن يسلب الآخر ذاته، لكـن المفارقـة تأتي في السطر التالي حين يقول: "أبقيك كما دوما عرفتـك" هنا يظهر إدراك بأنها شيء آخر عما يراه فيها، كما ويصر ألا يخوض في تفاصيل الرؤية الجديدة سعيا للمحافظة علـى ما كان هو يريدها كما دوما عرفهـا "ضـلعا ناقصـا"، أو "فاكهة"، راغبا أيظل ينظر إلى المرأة على أنهـا ضـلع آدم المفقود أو الناقص، وكونها ما ينقص أو ما ينقصه كفيل بأن يمنحها مكانة مختلفة عنه، فهي الفاكهة التي "نضتْ سـكرها" عليه تبرز طريقة وصفه للمرأة خاصة تحت عنـوان كنـت الذي أرى تحليلين أو نظرتين مختلفتـين: فـالمعنى الأول للعنوان يشير إلى أنه كان يرى أو يسـتطيع الرؤيـة قبـل تغيرها، بينما يفيد المعنى الثاني بالتركيز على ذاته إذ إن في صورتها الناقصة كان يرى نفسه: "كنت الذي أرى"، أي كنت أراني، بمعنى أنه لم يكن يرى سوى نفسه، ويـأتي السـطر الثاني ليؤكد ذلك: "أوغلتُ في حتى أقصاي"، فهو لم يخـرج من ذاته وإنما أبحر فيها حتى "انتهيتُ إلي " وهنا نقرأ بأنـه يسترجع زمن ما قبل اللقاء بها، "كأنمـا لـم يـأت بعـد ـ ماضينا"؛ إذ هو ما يزال في زمن ما قبـل الماضـي وقبـل

الذاكرة: "كأن لم نكن أبدا"، هذه إشارة إلى زمن ما قبل البدء، أي زمن آدم في فردانيته قبل ظهـور حـواء ويعـود فـي وحدانيته وتفرده ليسأل: "أسألك عمن يعرفني": فالسؤال فـي حد ذاته يتضمن استنكارا لوجود آخر غيره، إذ لم يكن سوى آدم وحده، غير أن الأمر بعد حدوثها لم يعد كذلك، فحـواء إثر ظهورها وكما يراها هو: "تدسني في هواء ليلهـا" ـ ـ فيشعر حينها أن ذاته قد سلبت فيضيف: "ثم تمحوني:"، إذ ها قد فقد مكانته في التوحد مع نفسه كونه الـذات المعرفـة إن ظهور حواء كفيل بهدر تلك العلاقة حيث يصبح تعريف ذاته مقترنًا بوجودها فالصراع هنا لا ينتج عـن التعـرف علـى النفس من خلال الآخر، لكنه ينبع من كـون حـواء آخـر مختلف متفرد: فهي "امرأة"، أي ذات ليست علـى صـورته ومتفردة بمكانتها، فلم يعد، والحالة هذه، هو المتفرد الوحيـد أو الأصل الذي تأتي على صورته الأشياء الأخرى. فالمرأة باختلافها مثلت الآخر المستقل، أي أن ظهروها خلق صراعا في الذات ولم يوصل إلى التوحد، لذا فهو عندما يعاود سؤاله" من يعرفني" إنما يعني (من يعرفه قبل ظهورها) ومن يعرفه بعد ظهورها، ومن سيعرفه بعد أن يفرق بينهمـا المـوت)

فالموت وحده، ومن وجهة نظره، هو القادر الوحيـد علـى فصله عنها، وبذلك يتوحد بتفرده مرة أخرى.

2

يمثل الصراع طابعا مميزا في نصوص الياس فركوح، فهـو يصارع ذاته، يصارع المرأة، يصارع الآخـر، ويصـارع الزمن من الخارج والداخل، مـع التركيـز علـى الإدراك واللاوعي وبالذات وبالآخر يمتد هذا الصراع ويتشعب، فـي القسم الثاني من النصوص، حيث يأخذ إطارا عقيـديا عبـر التاريخ وما يترتب عليه من عبء تحمله الذات في الحاضر إن النظر إلى الذات يمر عبر تاريخ متراكم من الموروثـات العقيدية، والتي تحاول النصوص الإلمام بها من خلال نظرة الرجل إلى نفسه عبر التاريخ - وهي النظرة الذكورية مـن عصر آدم التي تحـاول التشـكل بقالـب الآن (الحاضـر) والتعايش مع النظرة الأخرى المجردة جنساويا، وذلـك فـي محاولة لتفهم ما يعنيه الرجل داخل الإطار الجديـد المحمـل بذاكرة وإرث الماضي فالمرأة ليست المقياس لمعنى الـذات الذكورية في القسم الثاني،بل هي الـذاكرة التـي يحتضـنها الحاضر ويستحيل عليه التجرد منها، إن الآخر هنا يصـبح الرجل نفسه فرجل الحاضر ينظر إلى آدم الماضي ويواجهه

ليتعرف على ذاته. كما ينتج الصـراع مـن كـون الـذات الذكورية التي تستحضرها الذاكرة هي ذات فعالة، ذاتٌ ذاتُ بطولة، أما الذات الذكوريـة الحاضـرة فهـي مجـرد ذات تسترجع أحداث الأخرين وتقف عـاجزة عـن اسـتعراض بطولات مماثلة. وهنا يأتي الصراع محاولة لتوحيد الـذاتين وتمثيلهما في ذات واحدة تحتضن الحاضر والماضي معا.

في الكنيسة تحت المطر يرمز المطر إلـى غسـيل الـنفس وتطهيرها، والكنيسة إلى الذات فداخل الكنيسة البـاردة ثمـة شموع ذوبها التوحد إن الإطار الخارجي لا يعكـس الـدفء الداخلي، إذ داخل الكنيسة تخثر الصمت أزرق "عند الصغير الذي / لم تنسه أمه" فالصمت هنا لا يدل على نسيان أو عدم إدراك إنما هو صمت الدفء حيث تَرجلَ المصلوب عـن / مذبحهِ" فالذاكرة لا زالت مقيدة بجراح لم تبرح طزاجتها" إنه الإنسان العصري المحتضن لذاكرة مشبعة بالماضي والتـي تكون بدورها، الصراع الداخلي مع برودة الحاضر المفتقـد لاحتضان الأم: إن الإنسان، كالعادة شبه عار ٠حاف يتـوق للاحتضان من جديد.

يأخذ الصراع العقيدي إطار صراع أيديولوجي أكثر من كونه صراعا دينيا هو نزاع بين سيادة الحاضر والماضي فالإنسان المصلوب في الماضي هو رمز بطولي لكنه فـي الحاضـر يشهد على أن المصلوب قد ترجل عن مذبحه إذ لم يعد قادرا على اقتفاء المصلوب في الماضي وملء مكانه، لأنـه يحـن إلــى الــدفء يحــن إلــى العــودة لــدفء الأم، دفء الـ"Primordial"، أي يتوق للعودة إلى المنبع أو الأصل ـ إلى بدء التكوين.

يستمر احتضان الحاضر للماضي في هكذا على هواي. فكما أن الإنسان العصري يحمل في داخله الإرث ويمثل المسـيح المصلوب المفتقد لاحتضان الأم؛ فهو أيضـا آدم ويوسـف والتاريخ بأكمله فالنصوص لا تركز على المعتقد الديني بقدر تركيزها على ذاكرة الحاضر المشبعة بمـاض لا يمـت ولا يفنى ماض يحن للاحتضان من جديد، والعودة إلى أصل قديم قديم، وكما يقول الياس فركوح "إن نقل الماضي إلى الحاضر بالحديث عنه أو الكتابة بشأنه، هي عملية إعـادة تركيـب واعية"(٣).

في ضلع آدم يعود بالذاكرة ليتذكر حـين رآهـا، أي حـين استرجع النفس القديمة: "أغضى دالفا إلى عتمته"، أي استعاد الزمن الأول. لكن هنالك إدراك بأن العودة إنما هـي عـودة مفتعلة كونها عودة بوعي؛ فلا يمكن العودة إلى العماء كليـة مرة أخرى،إذ أن العماء الحقيقي هـو العمـاء الأول وهـو الأخير أيضا إذ لا يمكن تكراره: لا يمكن العودة إلى أسـبقية لا تتثنى لذا كسر ضلعه ثانية "وترابا" "وسواه برقَ اشـتهاء" هنا يتبدى حنين للأصل الذي لن يكون مرة أخرى ولا يمكن إلا في الذاكرة المحملة بالكثير، لذا فعند استرجاع الماضـي يجد أن الأحداث ليست غير "عاصفة مرسومة"، أي معرفـة ومعروفة وسبق لها أن حدثت، فلا يوجد ما هو جديد فهو لا يزال آدم والحامل للذاكرة الآن، أي أنه الحاضر والماضـي، فآدم هو من يصنع الحاضر والماضـي، لأن فـي انعدامـه سيكون كل شيء "مراكب تضيعها الذاكرة"، فيحثنـا الكاتـب على أن نصوب قراءتنا للتاريخ فتكـون معاينتنـا للحاضـر صائبة أيضا" إذ يرى الياس فركوح أن الشعر يتخيل الماضي ولا يتذكره فالشعر بتعريفه هو "المزيج الفريد من لقاء فاعلين هما الذاكرة والخيال"(٤)

في قمر الجلجلة تسترسل الـذاكرة مسـتغرقة فـي أحـداث الماضي: يوسف ونسوته، المسيح المصلوب، آدم وقد خـرج من عمائه، لذا يبدأ النص بـ"ألفُ شمسٍ للنهـار " كترميـز لتعدد وتلون الأحداث عبر التاريخ، و"ظل واحد لـي" أي أن الإنسان العصري لم يتبق له ما يفعله، فالأفعال كانـت فـي الماضي، بينما الحاضر لا يصنع تاريخًا بقدر ما يسترجع ما كان لذا يضيف نمشي/ نخط صحائف التماهى"، فـلا يوجـد شيء يفعل حيث أن الإنسان العصري، بخـلاف الماضـي، ليس بطلا بل متفرج على بطولات الماضي وحامل لحنـين عودة لن تكون لأنها عودة مسترجعة ففي استرجاعه لأدراج الآخرين يدرك، بصمت، أنه يكسر زجاج السراب إذ لا يمكن العودة للماضي لأن "الخطوة خطوتان/ لحم وحلم". إن اللحـم هنا هو ما كان قد حدث في المرة الأولى، أما الحلـم فلـيس سوى توق الإنسان العصري لاسترجاع أفعال القدامى، لكنـه لا يستطيع تحقيق ذلك كونه يفصل بين الحاضر والماضـي "تعب عجوز" في "غفوة الروح"، فيتمنى ألا يكون "الشـمس الأخيرة" حيث تندثر الأشياء في "جب الغياب" لذا فهـو فـي الذاكرة وحسب يحمل "ألف صليب"، أي الإرث كله "تحملـه

خيالاتي" كما ينشأ في" كأننا أحلامه ونطفو" الصراع من كون الماضي لم يكترث بالحاضر عند حدوثـه، أي أن المسـيح عندما صلب لم يكن " يفترش عرش الانتظار" بينما الحاضر يفعل ذلك ينتظر مـاض لا يمكـن أن يتكـرر لـذلك فـإن المصلوب "لا يعرف أننا انتبهنا"... "كأنما لا نحن بعد" ذلـك لأن الذاكرة تنطلق من الحاضـر، ولكـون الحاضـر هـو الحاضن للماضي وليس العكس، إذ أن الحاضر بمثابة:

ظلال سروة هزتها ريح
وراء النافذة

فالماضي لا يعبأ بنا، بل يقف مجردا بينما نحن سجناء كوننا لا نستطيع أن نتغاضى عن الذات المجبرة على تحديد نفسها من وراء النافذة، أي العودة مرة أخرى إلى النظر في المرآة المتمثلة في الماضي.وهنا يصبح الماضي هو الآخـر الـذي يستحيل محوه.

3

يعكس الجزء الثالث الإحساس بالتيه بين المتعرفات ومحاولة الذات التجرد من التعريف، فتنكفئ على التيه بـين الزمـان والمكان: التيه مع الآخر، التيه بين طيات الذاكرة، التيه مـع الذات وذاتها ـ ومن هنا تتبع ضرورة التيـه، أي فقـدان

التعريف من أجل إيجاد ما هو جديد في قيامة الذئب يستبعد الآخر في فعل المعرفة:

ما أخذ أحد بيدي،
ما دلني أبي،
ما تضرعت أمي،
وامرأتي ما كانت بعد امرأة،
فما هداني شيخ الطريقة
إلى الطريق

نجد هنا عودة إلى الوحشة دون الآخر، أو بمعنى آخر هو التجرد من كل شيء لإيجاد الذات: " هو الذئب يجوح مستوحشًا" ثم تأتي الوحشة هذه المرة من المستقبل فيقول: أكون والبيت وحيدين"وحينها:

ها هنا،
كفارة عن ذنوب لم يحن ميقاتها
وعن قوم ما قاموا بعد القيامة

تمتزج الأزمنة لكن دون العودة إلى الماضي فالحاضر يمتزج مع المستقبل وكأنه في فعل صراع للإعراب عن ذاته بعيدا عن ماض معرف فالماضي بتعريف الكاتب هو "الذي يكون

الآن"... إذ أنه الماضي الذي يقبل أن يكـون فـي كـل "آن وأوان" وفي المستقبل أيضا[5] لكنـه يصـاب بالتيـه عنـد المحاولة:

وأنا (كما أنا)

عمر يعرف كيف ستؤول بقاياه

.. هناك

يربض نقشًا على حجر

بمعنى أنه لا يوجد جديد فالمستقبل في حد ذاته منقوش كـأن الأقلام قد رفعت والصحف قد جفت، لأن الـ"أنا" لا زالـت وستظل كما أنا.

في سهوة العين عني يتصل التيه بين الأزمنة وفـي داخـل الذات فهو يتحدث في الوقت الذي بعد أوانه باحثًا عن "ملاذ"، فيسأل: "أين أفر بي؟" ولأن ثمة إدراك أن الـ"أنا" (كما أنـا) نجده يؤكد:

لا أحد ينازعني علي

لا أحد ينزعني مني

مدركًا أن ليس ثمة غيره، فحيثما توجه انعكست صورته:

فإن تخلعت أو انشطرت هباء أكون

أي لا يمكن التجزؤ أو الانفصال عن الذات، فالسهوة ليسـت سهوة بقدر ما هي إدراك بأنه يدرك نفسه بنفسه، لـذا فهـو يقول في لمعة الانطفاء:

كلما مررت على

أنسى

أي كلما أدرك نفسه تماهى فيها مستخدما، مرة أخرى المرآة، ولأنه أدرك أنه يرى نفسه بنفسه لذا في"لا لوم"، فكلما فاض بنفسه انطفأ - أي بعد الإدراك ثمة سكون في الـنفس كمـا تهدف لمعة الانطفاء.

لذا نراه في اكتشاف يبوح:

أوصدتُ المدى

لأ نفتح علي

لم يكن ثمة صدى

لم يكن ثمة أنا

لا يكون إلغاء الأنا إلا نتيجة الإشباع منها وبها، فمن انفـتح على نفسه انعدمت النفس فتلاشت الإثنينية: إذ بانعدام الآخر تتوحد الذات وتتلاشى.

في الضال يقول "مذ كنت " أي مـذ أدرك ضـرورة إدراك الذات:

غادرتُ بابي أسعى

إلى حيث

لا

أصل

إذ أنه لما يبحث عن نفسه بنفسه في نفسه فلا يصل لأصـل، ذلك لأن لا وجود لسواه فالضال هنا هو من ضل عن نفسـه فيها، أي من أدركها.

إذ أنه لما يبحث عن نفسه بنفسه في نفسه فلا يصل لأصـلٍ، ذلك لأن لا وجود لسواه فالضال هنا هو من ضل عن نفسـه فيها، أي من أدركها.

هذه الأقسام الثلاثة ليست منفصلة لانبعاثها مـن صـراعات الذات مع نفسها ومع الآخر، مع الخـارج والـداخل حتـى الاعتراف بأن لا ملجأ للذات من نفسها إلا نفسها، فتصارع نفسها من أجل إيجادها هنا يكتسب دور الآخر المتمثل فـي المرأة أو التاريخ، رمز البعد عن النفس أو الاغتراب عنهـا والتيه فيها، فمن خلال التيه تجد الذات ذاتها وتتوحد معها من

جديد، وبذلك يكون الياس فركوح قد نجح في تجسيد توافقـه مع مفهوم الشعر عند ميلان كونديرا الذي يرى أنه: يحفـظ في داخله لحظة وجود تتحلى بالصمود في وجـه النسـيان، وتتصف بالحنين حد التشبع الكلي، لأنها في ذاتهـا تسـتحق ذلك"[٦].

الهوامش

(١) فركوح، الياس "ليس الشعر وحده"، جريدة الزمـان، لندن، ٢٠٠٠/٧/٥.

(٢) فركوح، الياس ("الكلام": صوت منطوق، "الكـلام": لغة مكتوبة"), جريدة الزمان لندن، ٢٠٠١/٦/٦.

(٣) فركوح، إلياس، "الشعر والمجتمع: تصويب علاقة"، المصدر نفسه، ٢٠٠٠/٤/٥.

(٤) فركـوح، اليـاس "لـيس الشـعر وحـده"، م.س. ٢٠٠٠/٧/٥.

(٥) فركـو، اليـاس، لـيس الشـعر وحـده، م.س. ٢٠٠٠/٧/٥.

(٦) فركــوح، اليــاس، "كونــديرا شــاعرا"، م.س. ٢٠٠١/٦/٢٠.

لمعة الانطفاء

كلما مررتُ علي

أنسى

*

لا لوم على المرايا

تلك التي في ردهات

المقاصف،

تلك المعتمة بغبش

الأنفاس

والدخان الصغير

ودكنة الأيام

لا لوم على المرايا

تلك التي،

كلما مررتُ عليها،

تنسى

وكلما نأيتُ عن ردهاتها

في الدخان الصغير

وغبش الأنفاس

أراها تشرخت

متصدعة

بعتمة اسمي

لا لوم علينا

فالعجائز ـ كالمرايا

كلما فاضتْ لمعتهم

انطفأوا

١٩٩٩/١٢/٢

الكنيسة تحت المطر

تحت المطر .

تلك الكنيسة تحت المطر

في الكنيسة الباردة

تحت المطر

تلوى آخر خيط

من بخور ذاوٍ

وشموع ذوبها

التوحد

تحت المطر

تخثر الصمت أزرقَ

بردانًا

لائذًا بالظل

عند الصغير

الذي لم تنسه

أمه

في الكنيسة تحت المطر

الكنيسة الباردة

تحت المطر
ترجلَ المصلوب عن
مذبحهِ
حافيا
على رهافة أصابعهِ
فوق بلاط نظيفٍ
وباردٍ
وصلَ الصغير
الذي لم تنسه
أُمه
كان يلتحف ظل الدفءِ
وكان
كالعادة
شِبه عارٍ
في الكنيسة تحت المطر
تلك الباردة
تحت ذاك المطر
مما يشبه الدمع

أحمر يقطر

ما يزالُ

وجراح

في ذات المطارحِ

لم تبرح

طزاجتها

خارج الكنيسةِ

تلك الباردة

كان المطر

أعلى البرجِ

يقرع صمت جرسٍ

أيقظَه الليل

متوحدا

فنام

١٩٩٩/١٢/٧

ثنية الحليب

قبل الثلاثين
فوق شرفةٍ كالحليبِ
نقشتها أصابعك
وعلى رنين الألوان
الغامقةِ
مثل ساحةٍ
عمرها الفَجر
بلغت منتهاي
دون أن أدري
قبل الثلاثين بعمرٍ
واحدٍ
وقبل العمر
حين الازدحامِ
على أشدّهِ
قلت أن رأسي
توسد هكذا
ـ مثلما قلتِ ـ

ثنية الخاصرة
هكذا
قبل هذه الثلاثين
كان كل شيء:
أنتِ
وهو
والشرفةُ
الشرفةُ التي كالحليب
وأصابعك
إذن:
قبل الثلاثين بعمرٍ
واحدٍ
وقبلنا
حين لم يكن الازدحام
على أشدهِ
كان كل شيءٍ
ـ مثلما روى لي ـ
سواي أنا

وتلك الثنية
آه
الثنية التي لم تكن
أبدا
إلا
في
رأسي

١٩٩٩/١٢/٨

البهاء بين متنين

في الصدع كصراطٍ أخرق
وسط الهامش الطفل
بين متنين
أنمو أنا
أكتشفُني
بقحط الوثوق
يبابا شاهقًا
وأدرسني
بابتلال الإفاقةِ
عشبا نديا
على يميني
ينبجس الماء زلالاً
يرفعني ضعفي ـ يا لقسوتهِ
من إبطي
فأذكر
وفي اليسار مني
عند المتن المتكبر

المفرط بزهوٍ

قوتي

حين تكون وفق مشيئتها

أهبطُ

في التناسي

يا لبؤسِ هذه القوة

يالبهاءِ

هذا الضعفِ

لما يكتمل ..!

١٩٩٩/١٢/١١

نحاس خضرة الصدأ

المقاتلون سلالةٌ
من ذهب
أو هم
غالبا
يتدرجون على رغوةِ الشعرِ
خفاقًا
طيوفًا
بعد المطرِ
المقاتلون
ينتظرون على غيرِ عجل
هادئون تماما ـ وخالون
من غبارٍ
فوقَ أكتافهم
نُبلاء تنزهوا
عن جبلة التكوين
يقطفون
زهرةَ الغياب.

المقاتلون
تُلوح وجوههم
نصف الميتةِ
نار حطبٍ تتقد
في المدى
ويلفح رهافتَهم
نصفَ النائمةِ
بخار قهوةٍ باذخةٍ
دلالها نحاس خَضره
الصدأ
فيتململون
المقاتلون
لا يعيدون السقوفَ
التي كسرها الجنون
المقاتلون
لا ينسقون الشرفاتش
التي عصفَ بها .
المقاتلون

لا يرشدون الطُرقَ
التي تاهت هنا
أو هناك
المقاتلون
لا يقترفون رذيلةَ
الحضور وفداحتهِ:
إنهم في فضيلةِ الغيابِ يسدرون
إنهم على جمرِ القهوةِ ينتظرون
أو هم
غالبا
يتدرجون سلالةً
من ذهب.

١٩٩٩/١٢/١٢

أرقُ الأبيض وصرخته

إلى صرخة البياض وصداها

1

بين لونين اثنين

أي اثنين ملونين

دون صوتٍ

"يا العارفين بكُنهِ العالَم

أغيثوني"

2

هو الأبيض

أبدا

لا أحمر الدمِ يسقيهِ

حياة الترابِ

ولا أزرق السماءِ العالي

المتعالي

هناك

في ذاك الفَوقِ

يخفُ

الوطأةَ .

3

العارفون بكُنهِ العالَم:

أولئك الذين يقسمون

بالطباشير ألوانه،

للعاصفة أشلاء فوضاها،

للبرق طعنتَه الذائبة،

للرعد قصفَه الأخرق،

وللبلادِ سيولَها

كالأفاعي

بين الجرودِ

تتلوى.

العارفون "أطلس" الخرائطِ المدرسيةِ

رسامو تجاعيده ببوصلةِ

المحيطاتِ.. والسهل.. وسلاسل الجبال

لا يعرفون كيفَ

للأبيض

يصنعونّ مقعدا

ليستريح

أو يرفعون منصةً عاليةً

في الهواء الإلهي
ليتدلى
4
هو الأبيض
حياد بلا معنى
هو الأبيض
حليب سرقَتْ زبدتَه
هو الأبيض
بحار قُشرتء سماواتها
هو الأبيض
جبين أوغلوا فيهِ
وأوغلوا
حتى جفتْ
في أبارهِ مياه
الحياء.
5
هو الأبيض
شَيب تأخر فذبلَ القلب..
أو بكر قليلاً

فأينعتْ فيه
زهرةُ
الحماقات.
6
إذًا:
ها التُهمةُ تُضاء
بأقمارِها
التهمةُ إياها
يا العارفين
برد القَتْل
الأبيض
تتهيأُ لتُسرِج أفراسها.
والصغار
من أعطافِ معاطفِ
الأسلافِ
العتيقةِ
وأردان الخاشعين
زورًا
وحريرًا باهتًا

يخرجون

7

صغارا

يخرجون

ينفرون على بساطِ

الأكاذيبِ

الحلوةِ

جداء بقُرونٍ مثلمةٍ

وأجراسٍ

تستمطِر صوفَ راعيها

الإله

ولا ماء .

كالمواكب بلا أبواقٍ

كالكواكبِ بلا زيتٍ لقناديلها

وكجنودٍ راجلين

بلا سماتٍ

أو أوسمةٍ

أو أحذية.

8

للأبيضِ صرختُه

وهذا الفضاء الصاد

على هيئةِ القوسِ

يكون .

قبل نهايتهِ

لما يعلو الصمتُ

الأبيض

للأبيضِ الحائرِ

ينغلقُ دائرةً

ينكتم بتمامهِ

ينطبقُ

كأي وقارٍ لا يقولُ

غير صمتِهِ:

كأي وقارٍ يابسٍ

ضِيق كتفيه المحبسين

فلا ينتسب

لغيرِ

الهشاشةِ

9

الأبيض يعتكر بقهوةِ

الصحو الثقيل

الأبيض ينكفئُ صوب

فنارةِ الداخل النائسةِ

علها

هذا اليأس والوقتُ

تومض

إشارةً تأتلقُ

فيكون قوس الفضاء ريشًا

لوسائدِ الغفوةِ

حين تجيء .

10

بين نومين اثنين

أي نائمين اثنين:

نرى الأبيض يصرخُ

دون صوتٍ

"يا الحالمين بكُنه العالَم

أغيثوني"

١٩٩/١٢/١٤ – ١٠

خشية

أخْشَى على مسراتكِ الطائشةِ
كيفَ أجمعها
في سلال القصبِ
لأعيدها إلى
جادةِ الرشْدِ.
أخْشَى على حزنِكِ الفائضِ
كيف أحوطُه
بصدري المتداعي
لأنقيه من
عِثةِ الفسادِ
أخْشَى على أصابعكِ الصغيرةِ
كيفَ أصونُها
من قَرضةِ الأسنان
لأُبقي على
عددها العشْر.

أخْشَى عليكِ التآكلَ.

أخشى عليكِ منكِ.

وأخْشَى علي.

١٩٩٩/١٢/١٥

كأننا أحلامه ونطفو

لم يكن سيدا على مائه
يفترشُ عرشَ الانتظار.
لم يكُن في أبراجِ ليلهِ
شاهقًا
يحشد للمجراتِ نجومها النيراتِ
مثلَ ظلال السروةِ
وراء نافذةٍ
أغْبشَتْها غبرةُ
العمرِ العقيم،
ورذاذُ طيْشٍ كالشهبِ
الهابطةِ
طيوفًا،
كان الرجلُ
على الحائطِ
يتراءى
طافحا بعشقهِ
وفضيا خالصا للمسرةِ

كأنما يغسلُ فينا الخطايا، هكذا:
يرنحه صحو المغيب،
كأنما ينبِشُ أبعد مِن لحمِنا
أبعد
فحم الجحيم،
كأنما يطرد من نوابضِ أسِرتنا
التي على قلقٍ
صرير الآخرةِ
ومن هيكلِهِ
فُلولَ المتمنطقين ذهبا
بين الأعمدةِ
الرخامِ
هو لا يعرفُ أنا انتبهنا،
الرجلُ على الحائطِ
لما اطمأن مصلوبا
يتراءى هناك
وغائرا في ذوب الشمع وفتائِلِهِ
لم يعرفْ أنا انتبهنا

فانتحبنا
وانتحينا
وانتخبنا منا كبشَ ذبحٍ
وأوغلنا هنا
في غبرة العمر تغورا
وعلى شُهبٍ طيشٍنا
رذاذًا آيلاً
للرماد .
الرجلُ على الحائطِ
الرجلُ المصلوب على الحائطِ
لم يلتفتْ
ـ يا لمسرتِهِ الفِضةِ ـ
لعيدان البخور تحترقُ
باسمهِ
لتروح روائحنا
عنا.
لم يكن سيدا على مائه
ينتظر

لكنه

لما دقت الساعةُ

منتصفَ ليلنا

وصاح الديك للمرةِ الثالثةِ،

ظل باسما في نومتهِ ـ هكذا:

كأنما لا ولادةٌ بعد

كأنما لا خطايا بعد

كأنما لا جحيم بعد

كأنما لا نحن بعد

إلا أحلاما نراوده ثم نطفو

فوقَ جبينهِ

تُرنّحنا أثقالُنا

مثل ظلال سروةٍ هزتْها ريح

وراء النافذة

١٩٩٩/١٢/١٨

امرأة المرآة

كم مِن ليلٍ أُبيضه بصكوكِ البراءةِ
كم من جدار أُسنده بجبهتي
وكم من الشفاعاتِ يكفي لأجمع ثمن المغفرة..؟
المرأةُ مرآتي،
وأنا شُبهةُ سؤالِها الملتفّ كالطوقِ
يحتفلُ بأجراسهِ
يصلْصِلُ كلما انتَتَرتْ
يتخاطفُ ضِياؤه في غِلال البصر
ويعتقُ في ركن سهوتها
المرأةُ مرآتي،
وأنا سؤالُها المشبوه تُدليني كالسبحةِ
مفروطةٌ حباتُها بلا التئامِ
كدخان قُرى طوتْ بيوتَها
ذاتَ صيفٍ
فلم تحتطب
لشتائها المرتقَب
المرأةُ مرآتي،

وأنا الشبيه بسؤالِها الأول
أُوقِفُه حين يلْهو
وأُوقِظُه لما يغفو لنمضي.
رميتُني على زجاجها المفضض بكاملِهِ،
على الفضيحةِ الغاصة بوجهي،
على سهوِيها فادح عشْـبها
الندي
فتنحسِر بي
كموجٍ أخضرٍ يتوالى انسحابهُ
رويدا وندامةً
لهاثًا وخسارةً
حتى انكفاءِ العين
على
العمى.
هكذا تَمحى
الذنوب
هكذا تتخفى
الاعترافاتُ

لائذةً

بكهولةِ الذاكرة

هكذا لا تكون المرآةُ

أبدا

ولا

نكون

١٩٩٩/١٢/٣٠

الأخير

ينْحني علي حناياه
طاوياً أشلاء موتاه
وبمفردِهِ يسير
يشرب أنخابهم نبيذاً تخمر
باشتهاءاتٍ عتيقةٍ
يرشفُ صحتهم بحرصِ القَيم
على أقْبيةِ الرطوبةِ
ويحسب أطيافَهم المحلقة
خفيفةً وشفيفةً
في اتزانِ عتمتِها
(كم منهم تبقى؟)
ليكون
الأخير.
على نِثارِ أحلامِهم الراكدةِ
يخْطُو،
على طَلْعٍ يطيره لهاثُ الشمسِ
يرقى

صاعدا ويسري
من شُباك الحائطِ الموارِبِ بضوئِهِ
إلى بوابةٍ هناك في السمتِ
أقفالُها تتخلع
تحتَ وطأةِ الطهاراتِ الطهور
وحجراتها تشهقُ خائبةً وخاويةً
لا يسكنُها إلا السكون
وهذه الأوعية:
هي الأمواه متقَنةٌ
وناشفةٌ
وأصدافٌ
وتلك الأدعية:
هي الأصواتُ منتقاةٌ
ووحيدةٌ
وأرقى.
كان وحيدا عند نزولِهِ
وكان،
مثلما أراد،

الأخير.

لكنه

كلما انطوى على أعضائِهِ

مستدفئًا

تحسسهم واحدا واحدا

(كم مِنهم تبقى ؟)

دون أن يعثُر فيهم

على معنى

لهذا الطريق .

فجر الأربعاء ٢٠٠٠/١/٥

سهوة العين عني ولادة

في الوقتِ الذي بعد أوانِهِ
في الأمكنةِ التي لم تكُن
أو لم تعد
ولادتُ لتوي
الآن
دون شهقةِ انتباهٍ
دون أحد.

شهادة

يقولون إنهم
يقولون إنا
يقولون إني
لكنهم،
في شرودِهم،
لا يقولون
عن شهود.

اســــــم

كلما تحسستُ دفئَها
دانيا
كالقطفِ
انثنتْ عني،
وكلما انفرطتُ ُأقاب رجفةَ قلْبي
باردا ومدمى
حبةً حبةً،
هتفَتْ ـ أخالُها ـ تُردد اسما
كاسمي
فتحبسني.

مــــلاذ

سجادةُ الريح ملأى
وأبسطةُ البسيطةِ نَطْعي
فأين أفر بي..؟

هناك

لا أحد ينازعني علي
لا أحد ينزعني مِني
فإن تخلعتُ أو انْشِطرتُ
هباء أكون،
ووحدي
إن ظللتُ كاملاً
على الدمع انفطمتُ
بغير ثدي
أو عيون.

٢٠٠٠/١/١٠

قيامة الذئب

ما أخذَ أحد بيدي
ما دلني أبي
ما تضرعتْ أُمي
وامرأتي ما كانتْ بعد امرأةً
فما هداني شيخُ الطريقةِ

إلى الطريق
كانت الأبواب مقفلةً ـ كلُها
والنوافذُ،
بزجاجِها الطحين على البلاطِ،
تضربها ريح البردِ كلما عصفتْ
فيستعيد الخشب غابتَه
والحيطان،
رغم صلادتِها المنتصِبةِ
تحت رشْقِ البلل الثقيل،
تقشَعِر
فيساقَطُ عنها حنينُها
وتَعرى
ثمةَ أنين يمتد في الحجراتِ الخاويةِ
يكْنُس غبارها الرطْب
ويهمد.
ثمةَ نواحٍ يعبر رماد الخلاءِ
فيعمّره
يوقظُ الأسى القديم

ثم يصمتُ
كالسكْتةِ المباغِتةِ:
هو الذئب يجوح مستوحشًا
وينادي
مخبولاً بالفضةِ الهاويةِ
تحتَ القمر
البيتُ نقطةٌ في أُفقِ الثلْجِ
تتخايلُ وترتعشُ
وأنا (كما أنا):
عمر يعرف كيف ستؤولُ بقاياه
كيف سيلوك الضجر زوائده
وكيف أن مبتداه.. هناك
(حين يذوب البياض لاسعًا كالحرقِ)
يربض نقشًا على
حجرٍ
يكون البكاء جارقًا كسيل الأوديةِ
يكون العالم غارقًا كبدءِ التكوين
أكون والبيتُ وحيدين

تماما وعلى قارعةِ الغَمرِ،

نغطس في لجتنا ونحيا

، ها هنا،

كفارةٌ عن ذنوبٍ لم يحِن ميقاتُها

وعن قومٍ ما قاموا

بعد

القيامة .

٢٣-٢٠٠٠/١/٢٤

السهرة مالحة

فَوح اشْتهائي يطفر منكِ

لامعا

ليلةً ليلةً

ويجولُ كالخطيئةِ راعشًا

في كل حلمٍ.

وعندكِ

إن تحامقتُ أو شطَطْتُ

اغتربتُ

أو شطأْتُ
على جنْبي
ينتكس كالخريفِ
أصفر يئن
ويحط بشطْحهِ منْهدا .
هو فوحكِ يبقَى
حتى انطفائي الكَتيم
ألهذا طعم السفرجل واحد ؟
ـ مِز وشَهد
وخطو النعاسِ الواطئ واحد ؟
ـ خَدر وخِفةٌ
والشهقةَ المفاجِئةُ التي تضربنا
أبدا وبغتةً
في كل مرةٍ يرجِفُنا ذهولُنا
فنغيب،
وكل صعدٍ نعلو مترنحين
يرفُعنا خمرنا إلينا
ثم نكتشفُ انحدارنا

لما نتبدد رويدا

ونبرد؟

لماذا النواس يقمطُ رمادنا فنقوم فيه ؟

لماذا الملح المرشوشُ على سهرتِنا نحرسه؟

ولماذا لا نكون

في برزخِ الخواءِ الشفيفِ

،عندما يمطر نخيلُنا غيوما مشرخة،

غير عمرين ما تذوقا الحلاوة ؟

ها الرطْب الشَهي يسقطُ

هناك

دانِقا ويقْطُر

بين السماءِ

وبيننا.

ها نحن أرضيان كما كُنا:

من غُبارٍ في هدبِ الشمسِ

ومن طينٍ لما تُغْمِض وتنام.

والنهار ـ هذا النهار: يخرج ليلعب

ساهيا عنا

وغافلاً

في حِراكِ

سوانا.

٢٠٠٠/٢/١٣

هكذا على هواي

ضلع آدم

حين رآها

أغْضى دالفًا إلى عتمِتهِ

عند مرابطِ الحمحماتِ.

كسر ضلعه ثانيةً وترابا،

ولما خطَتْ في عرق الكفْل

سواه برقَ اشتهاءٍ

ثم قال بكفيهِ

،وقد شد من الحقول الزبد شتلَةً،

إنها عاصفةٌ مرسومةٌ

والبحر

من دونهِ

مراكب تضيعها الذاكرة.

نسوة يوسف

حين رأينَه
خبأت النسوةُ رعفةَ العري
تحت ريشِ الثياب.
غضضن أصابع الرضابِ سارحةً،
ولما مشى في ثلْج الأسِرةِ
هربنَها بين الثنايا
ثم ادعين لاثغاتٍ
،وقد سرقن من جداتهن خفَرا كاذبا،
أنه غيمةٌ قاحلةٌ
والأرض
من دونهن
حصى يرشفُه العطشْ.
٢٠٠٠/٢/٢٩

أفولات

غرب الرثاء

تفَتقْتُ عن صبحٍ أعشى
فما رآني
إلا سديما
رفاني بعمى خُيوطِهِ
الهواء
وخلاني
وحيدا كنت مثل الدلوِ في بئر
مدمى كأنما قميص القتيل
وباردا كصخرةِ الأعماق.
ولما هوت برتقالةُ عمري
مِن غير ذكرى
تأفلُ
أو صوتٍ يضج
بغير الآه،

يمم غربا باتجاهي

ورثاني

عراء

ثمة من يدعيني

يخلع ظلي عني

ويتركُني راعشًا كالخريف

ومشلوحا

فمن يدنيني مِني ؟

ها الغيوم تنهبني

ها الأسى يعلي القِطاف .

ثمةَ الولادةُ تنْحسِر

عمياء

وثمةَ البدء الأولُ

ينقص.

حماية

كانت الأسيجةُ معشِبةً
بخيالاتِ
الذين مروا
ومثقلةً،
وكان
ثمةَ
أنين.

الضال

منذ الخطايا المنْزلةُ مِن
سابعِ سماء
والبكارات العفية.
منذ الوجوه الضرجتْها
بهجةُ أجسادِها لما استوتْ
والطين حين ضجِر
من قوامِهِ،
منذ كنتُ
قمتُ

وغادرتُ بابي أسعى
إلى حيثُ
لا
أصل.

غسيل ملون

تطامن الليلُ وأرخَى
فسكن الطريقُ إلى رصيفِه
دفن السر تحتَ بلاطاتِ
المشاةِ الغائبين
ثُم غَفا
غاسلاً أساه ملونًا
مثل الجارةِ الصغيرةِ،
عل العتمةِ تنشفُه
منشورا
على
ضلوع
المتْعبين.

البيوت

البيوتُ تهجع فاترةً
كأصحابِها
كالمعاني
كالحليبِ
يشخب
من لوزةِ الثدي الثقيل
كالقبضةِ تُفْلِتُ
هبةَ النشْوةِ دائخةً .
البيوتُ صناديقُ خَيباتِنا.
دمعةٌ تختالُ
على مصطبةِ الوجعِ المعتقِ
وتلمع،
أو هي تفيض
حرةً تنساح
في
قبوها.

٢٠٠٠/٣/٢٠-١٤

كنتُ الذي أرَى

لن أُعريكِ منكِ
سأُبقيكِ كما دوما عرفتكِ:
ضلعا ناقصا في ملوحتِهِ
وفاكهةً نضتْ سكرها
علي
كنتُ الذي أرى
أوغلتُ في حتى أقْصاي
تلمستُني بعتمتي الفصيحةِ
ولما انتهيتُ إلي
سمعتُني ألغو ببدءٍ كالسيفِ الخاسرِ
ـ نصلُه مثَلم،
وألثغُ بماضٍ يهذي ثملاً
ـ يتأرجح،
ولغتُه التي كانتْ لنا
امحتْ منها الحروفُ
كأن لم يأتِ بعد ـ ماضينا
كأن لم نكن

أبدا. أسألكِ عمن يعرفني
أو من كانتْ دوما تُقشرني:
عصارتي ترشُفُها فأذرفُ
ثم أكبو.
تدسني في هواءِ ليلها
كالتميمةِ تُتَمتم بي
ثم تمحوني
حين صباحا تجدده
على كِسرِ الزجاجِ
وملحِ النافذةِ ؟
من يعرفُني
عندما يخْمج النهار
في ظهيرتِهِ
وتعطِن القيلولةُ
فوقَ شرشفها ؟
من يعرفُني
لحظةَ أن يفيقَ الموتُ
محدقًا بي

فيعرفُني ؟

٢٠٠٠/٦/١٤

كأنّي فَريسَتي وأكثر

عُمْر

عددتُ خمسين عراءٍ

وسحابتين مِن النساءِ,

رفعتُ وجهي فشهدتُ سرابا،

حينها قلتُ:

كان عمري.

اكتشاف

أوصدتُ المدى

لأنفتح علي.

لم يكن ثمةَ صدى

لم يكن ثمةَ أنا.

عروج

طرتُ إلى ا ـِ

أو حاولتُ،

صدتني سماء من رخام

وملاك صامتٌ

يحرسني

جناحاه حجر.

ميراث

كما لو أننا الدخلاء علينا

كما لو أننا الخارجون بأحلامِهم

نبذُرها في سهوبِ المضاجِعِ

كالأضاحي

فيجمعها أولئك من بعدنا

شِلْوا شلوا

ويغصون.

أولئك،

حين تركناهم على الأرضِ

كالحليبِ الرائبِ

كانوا

كما لو أنهم

أشباهنا

رَذاذ

في العمر متسع للمزيد:

كبر الكُرب

في القبر متسع للجميع:

دقت الأجراس

ما ذاقا قضمةً من هذا

ما سمعا رنةً من تلك

كانت الشهوةُ فيما تشُد

قوسها،

كانتْ تُسدد

فيبكيان.

والقمر

من شُرفةِ بردِهِ

يرذذُ لهاثهما

بعطرِ

السخرية .

١٢-٢٠٠٠/٧/١٣

العنـــــــاصر

بالسـجع العالي

من عفر ترابي قليلاٍ، وثقيلاٍ مالَ بجذعِ الأرضِ وأرعشَني؟

من رج مائي قليلاً، وخفيفًا كالنثيثِ ذرًاني، فوقعـتُ أديمـا يتربص بي شبقًا يخادع غيومي، يراودها عنـي، يعريهـا، فتَنساني؟

من هز هوائي قليلاً، وواسعا شلع باب يبابي ليفلَح غباري ـ حين يطأه واثقًا ـ ويرتبه شموسا ذاتَ جرسٍ وييباسا يعـبس بي؟

من أوقد ناري قليلاً، وكثيرا أفرغني مِني، ثم قلادة الطـيش أهداني فأبكاني؟

من ذا الذي على هواه شاءني، فما صِرتُ أنا ؟

إلهي!... من ذا الذي في خوائهِ أبقاني ؟

أكان هو من عبث مرة أخيرة ، قبل أن ينسى، ثم سواني ؟

٢٠٠٠/٩/١٠

قمر الجلجلة

الف شمس للنهاء
وظلٌ واحد لي،
*
نمشي
نخط صحائفَ التماهي
نضفر ملاسةَ الأرضِ
وإلى مكنونها ندِلفُ
ثم نكسر،
في صمتِنا الباهظِ،
زجاج السراب.
الخطوةُ خطوتان:
لحم وحلْم
وللتعبِ العجوز بينهما
سأقولُ:
لا تشهقْ بترائِينا
أو تنوء،
لا ترمي بنا ـ كما عودتنا

عند الشمسِ الأخيرةِ

هكذا ـ

في عفرةِ الروحِ

لما تبرد،

لا تنثُر نداك

لا تُزين بالشوكِ صليبنا

أو في النأي تدعه

بعيدا هناك

عائدا

إلى جب الغيابِ

ينوس.

يا العجوز،

يا

أيها التعب العجوز

تمهـلْ،

إنا وإيّـَاك

بين كسرِ السرابِ

وضفائرِ الأرضِ

في صحائِفِها نمضي ـ
هكذا،
كأنما نحن
ثلاثتُنا
واحد.

*

قمر واحد لليل
قمر مطفأٌ
وألفُ صليبٍ لي
تحمله خيالاتي
بلا وزنٍ
إلى
الجلجلة.

٢٧-٢٨/١١/٢٠٠٠

عشـب أرعن

هذه الكتابة

1

لعلها نزوةٌ رمتْ إلى حصرِ ماهية فالتة والإمسـاك بها ، فطاشت بعيدا عن أي تجنيسٍ، ومضتْ فـي خـلاءاتِ غُربتها عن كينونتِها، فانتثرتْ حفنةُ الظنون لتغطيها وتزيـد الماهية التباسا.

كأنما اكتنَزت} محاولةُ الإجابةِ والحصرِ (الكتابةُ في ذاتها) غموض الأسئلة قيد الفَض، فباتتَ، شـكلاً وجـوهرا، تلتف معها وبها في ما يشبه دوائر متكاثرة قِوامهـا كلمـات معراة من قشور سطوحها. كلمات تسـعى لأن تكـون مـن جديد، بالاعتماد على ذاكرتها / ذاكرتي وحسب، دون رأفـة سماء المعاني الساهية هناك، في الخارج أو الأعلى.

أي ذاكرةٍ ما أعيشُ فيها وأعتـاشُ عليهـا ـ ومـا تحملُني إليها ـ وما ذهبتْ بي صوب ما لا أعرف سـوى: هي "كتابة" فتشْتُ فيها عني أولاً وأصلاً، ثم تحولـت، فيمـا

بعد، لتكون بؤرة ريبتي حيالي، مستولدةً لدى غيري شـبهة النقصِ في التعريبِ واستنطاقِهم ـلي عنْها.

أسألُها عني بخـالصِ عكَـري وشواشـي الحـائر، فيجيبونَني عنها بنصال اليقين والجوابِ الباتر.

أغبطهم على ما هم فيه من "رغْـد المعرفـة"، ولا أتأسى علي بقدرِ ما أُشفقُ على أمثالي ممن "يتعبهم" فقـرهم وافتقارهم لـ"إيمان العجائز"!

أهي لوثةُ الكتابةِ في نزوتِها لاكتسابِ مساحةٍ جديـدةٍ تؤهلُها لأن تنزع عني قناعا آخر عتيقًـا، فـأنتزع بـدوري ولحظتها، من تأتأة أبجديتِها الوليدة، اعترافًا يشهد علـى أي أسئلةٍ تلوّثتُ بها ؟

ربما، ولا يقين سواها.

ربما، وتبقى نزواتي خساراتي .. أو هـي أربـاحي المؤجلة.

2

الكتابةُ مرآتي، وأنا الذي فـوق وجههـا المتعـرق المضبب أخطُ حروفي بأصبعي، سريعا وملهوفـًا، قبـل أن يتبدد الندى، فأمحي أنا إذْ تتوه الذاكرةُ وتسـيح: إذ تتغـبشُ الذاكرةُ وتشيخُ.

3

هذه "كتابة" لا تنتسب إلا لنفسِها من غير فخرٍ وهمه إدعاء التأسيس، أو خجلٍ حِيلتُه عقدة الانبتات، فإن تماهتْ أو تماثلتْ مع جنسٍ أدبي ما، فلا يعدو الأمر مجرد شُبهة سببها التشابه.

4

لكل كائنٍ منزله، ولكل منزل حديقةٌ خلفية.

هذه حديقتي الخلفية، حيثُ يصير للعشْبِ الأرعن أن ينمو في غفلةٍ عن مقصاتِ التشذيب.

الياس

٢٠٠١/١٢/٢٠

نصوصٌ سابقَة

نصوصٌ لاحقَة

ما تيسر من حالاتها

١. تكوين

أرخَتْ للوقتِ أثقالَه وأطلقَتْه، فتطاير مترنحا في الهبة الخفيفة خفيفًا متخفـفًا،. ليس يعبُأ ـ بالذي مضى فيمحـوه. وليس يحصي عليه وعلينا دقات الأرض التي عاندتْ، هـذه المرة، قانون الكون، فكفَتْ أن تكون، ورضيتْ أن تسـتحيلَ إلى أول جديد. أبطأتْ دورتَها واستكانتْ تنظر إلى الحركـةِ المتبدأ.

ما كان من أحدٍ يشهد على ما جرى سواها: هي التي أجرتْها في مجراها، فسارع العالَم يلتئم في أشيائه المخلوقـة يتخلق حسبما تفكر وتشير.

رأتْ إلى جِلْد الغَمر الهائل المتراخـي علـى وجـهِ السكون الرتيبِ فما سرت.فكرتْ في الأمر وتدبرتْه: كـان ، وانبسطتْ أرضا يبوسًا لونها بالأخضر المعشوشبِ الـذاهبِ نحو فضاءِ الظلام.

حدقتْ بالبهيمِ الساجي المعلق الذي نثر جثتَـه فـوقَ محيطِ ما كونته فما سرتْ. فكرت في الأمر وتدبرته: كـان،

وانفلقَ سطحا سبع مراتٍ محـدبا أزرق وشـحته بـالقرص الوضاء فجاء جلاء ضياء.

لحظتْ فضيحةَ السماء العارية فما سرتْ. فكرت في الأمر وتدبرته: كان، وولِدتْ غيمةٌ بيضاء زنَـرتْ خاصـرةَ الأُفقِ وتدلت كاسيةً فجور القيظِ الملتهب.

أصاختْ إلى الصمتِ المنسربِ في الخليقـةِ يلفهـا ويخرس لسان النُطقِ فيها فما سرت . فكـرت فـي الأمـر وتدبرته: كان، وهبتْ في الأشياء ريح راحـتْ تـراوح ثـم ترحلُ إلى قصباتِ الماءِ تَزمر في أفواهنا وتَزمر.

أطبقتْ عينيها على فراغٍ سرعان ما تعبأ بشيءٍ اسمه ليل عتَم أعمى معمى فما سرت، فكرت في الأمر وتدبرتـه: كان، ورصعتْ بطون السوادِ القاحل بشعشعةِ نجـومٍ بعيـدةٍ أنارتْ لها فضة قبة القِباب وأبراجها، فـارتعشَ روح فيهـا واتقد. فكرتْ في الأمر وحارتْ. لم تتدبر أمر نفسِها. حارتْ. وحارتْ، فسالتْ قطرتان حارقتنا من عذابِ ضربِ الجسـدِ وهزّ عطشِ الروحِ وتساقطَ من عليائها، وانفلتَ. أمسكتْ به، حين فكرتْ، وتملته. تحسستْه، قبل أن يضيع في شيءٍ مـن هذا الخلقِ وقبل أن ينفلتَ. كان وجها يشـبهها ولا يشـبهها.

كان وجها منها وليس بوجهها. رفّ الـروح ثانيـةً وتفـتح الجسد.

أهذا عذاب!!: قالتْ تحث نفسها.فأجاب: لستْ هذا . ذهب العذاب.

لكن الشجرةَ لم تكبر . وثمرها لم يزهر. وتفاحها لم ينضج:

قالتْ .

نحن بعد التفاحة وقبلَ الخطيئة: قالَ.

من علمك ؟! : قالت.

ألا تعرفين؟

لا أعرف. ومن كونك؟

ألا تعرفين؟

لا أعرف. ومن أنت؟

هكذا فكرتْ في أمرهِ لمـا غشِـيها جنـاح الـروح وأسكرتْها رقصةُ الجسد.

تدبرتْ أمر ذلك وسرت. فسرته في داخِلِها، وتعلمتْ تضاريسه في كل جسة أصبعٍ مررتْه فوقها، وقالت: إنه أنا . مني أنا.

ثم أرخت أثقال نفسها، وانطلقتْ.

٢. انتظار

أجلستنْي في حضن راحتها وقالتْ أن أستريح، وأن أنفض عن كتفي سديم الانتظار. وأذكر أنها قالتْ، أيضا، أن أصابع التعبِ التي اعتادتْ تفتيلَ الوقتِ لا تعرفُ عد انتصاراتِ الآخرين إلا حين تشرع بعد خيباتِها المنحنية بوجهها فوقَ وجهِ الرمال.

نظرتُ إليها فأدبرتْ. كان عمود ظهرها يفصلُ لوحين لدنيين تشربا لون المغيبِ، وكان وجهها يرحلُ صوب مبتدأ النهار. تلهفتُ للمزيدِ منها، فقلت هاتفًا أن انتظري، فإني معكِ إلى ما تذهبين أذهب.

سمعتُها: لستُ وقتًا لينًا تفتله.

فقلت: أعرفُ كما تعرفين.

فقالت: لكنك لا تعرفُ ما أعرفُ.

فانهزم صوتي: أعرفُ.

..؛ ورفعتُ نظري لأرى؛ فما كانت؛ فكنتُ   ـ هـا
اني أفيقُ وتحضرني الذاكرة ـ أفتلُ حبالَ الوقتِ التي غلظتْ
حول عريي فكستني واخشوشنتْ علي لأصرخَ متحشرجا في
وهدةِ الإفاقة:

لكنكِ قلتِ أن أستريح !..

ولم يأتِني ردها إلا بعد وقت إرتد علي:

.. ريح ، ريح ...

كان صدى حملته زوبعةُ المكان مع رشقةٍ صـفراء
من رملها.

وكان على كتفي، ما يزال، سديم الانتظار.

٣. لغةُ ما بعد الياء

ذهبتْ إلى ترتلُ كلامها على وجهي صلاةُ ديانـاتٍ
انبعثتْ تحت جلدي بخارا، وبخورا، وأنجما بزغتْ في عينيها
تقول تلك الحروفُ التي تبدأ بعد الياء، ولا تنتهـي إلا فـي،
مستودعا، أو كهفًا، أو ملاذًا يسد بحجـر الغُصـةِ التـي لا
تنطفئُ إلا بها، ولا ترتوي إلا بها، ولا تقوم قيامة المجـيء
سوى على جسدينا النازفَين حرقة الماءِ الذي يلسع، ولا نـار
ترى غير هذه التي أضرمتْ سعيرها في تجـاويفِ مجاهـل

معلوماتٍ تمسك بالحسِ أو بالذاكرةِ الحبلى، لكما أجهضـت تحبلات؛ فطقطق عشبنا المصفَرّ، والتف علينا نعيما، قبسا من جحيمِ الأرضِ السابعِ خصلةً تدلتْ صوبنا؛ فيها فغورنا إلـى أن أطلقتْ رعدةَ السماءِ نداءها فينا؛ فكان جمر الخيطِ الـذي انفصم عن إطباقةِ الشفق، على جمرةِ التوحدِ التـي جـاءتْ بيننا، كما ذهبت إلي، كما أتيتُ إلي أبحثُ عني فيها؛ فوجدتُها تواصلُ الترتيلَ خفيضةَ الصوتِ، عرقـة الأذنَـين، نابضـةً فاكهة الطراوةِ المزغبةِ الممنوحتين للذي لا يسمى سوى بتلك الحروفِ المتخلقة من رمادِ الياءِ القديمةِ، مخضرة المعـدن، صدئةً صدئةً صدئةً مثل الكلامِ ... كل الكلام.

٤. جسد الأبنوس

هذي ملاءاتُ النهارِ تنْثَني وتُعري الأبنوس النـابض العرقان. تشرب من نداوتهِ رحيقًا يسعفها في المضي الهابطِ البطيءِ تلتمست لمسةَ التماسِ الرهيفِ للربوةِ تلو الربوةِ، عل بعضا من قماشِها الأبيضِ يستقر، ولو للحظةٍ مختلسـةٍ مـن انتباهِها في الذهول الذي شهقَ فارا من نفسهِ، وغاص منتحرا تحتَ قوسِ النحر.

تهبطُ متثاقلةً في ذاك السهل السري الصـعبِ: بـين عجينتين عضليتين مخمرتين، كلما مستهما أصـابع الجـوع الراعشةِ تكورا بنارها. وكلما قضمهما شبقُ الشفاةِ المتشـققة نضحا حليب الدمِ المستفز في أوصالها حتى أوصالِها.

يضيء الدم ويذهب في اسـتباحتِه للعـالَم. يصـبغ السقفَ بلونِه سامقًا صوب تطرفه الأهوج القلق.

ولا قلق.

كل شيء يعرفُ شيئَه، ولا من شاهدٍ غير تلك النافذةِ العمياء تتلصص،وهذا الهواء المتمهلُ ينفخُ في الملاءاتِ كلمةَ البوحِ؛ فتطير. تُهفْهفُ فوق الخلجاتِ وتُمعـن فـي مسـها الخبيثِ، تصير الخلجةُ هتافًا. يصير الهتـافُ أنينًـا يرتقـي ارتفاعاتِها فيرتفع. تهرع الألوان إلى انطفائها المشدوه ميممة شواطئ ليس فيهما يملأ العينين المغمضـتين غيـر دخـان الغيوم.

تهب الريح الصارخةُ بالنبأ تذيعـه وتزرعـه فـي الصخر الذي يصون السر: ينبتُ العشب مفتتًا صلادةَ التكتُمِ، ويهز رأسه.

تموج الملاءاتُ هاتفةً بالصوتِ ـ الأنين، مثقلةً بندى الغيومِ المضاءةِ، مضمخةً بالشهوةِ الملونةِ. شاردةً في الغفوةِ المباحةِ لطيورِ الحلمِ، ونعاسِ الشبعِ.

تستكين الأظافرِ التي ما عرفتْ جسدا تغـرس فيـه جنونَها سوى لحمِها المتهيء.

تستكين الأظافر وترتُخِي.

ترتخي، ترتخي، ثم تنام ـ ثانيةً ـ تحتَ مـلاءاتِ النهارِ التي سرقتْ من السماءِ لونَها، وانسدلتْ.

أشبعتْ شهوةَ الأبنوسِ . أشبعتْ؛ فاسـتسلم الجسـد لشهيةِ السبات .

اللـغة

الكتـابة

التواصل

هي مخاطبتي الأولى لـكِ . وقـد تكـون، كـذلك محاورتي العلنية لنفسي عبر توجهي بالحديثِ إليكِ غيـر أن ثمة ما يقطع علي هذه البداية ليقولَ لي: لِم لا تكون تتوجـه إلى نفسك لتحاولها عن همومِها .. شؤونِها .. وتمسك بما لا يمسك بالكلامِ المنطوق ؟ أليس هذا واردا:؟

الآن .

عند هذه النقطة، تبرق لي إضـاءة تحيلنـي إلـى " إمساكة" كنتُ قد عبرتُ عنها سابقًا، إذْ كتبتُها في واحدٍ مـن "النصوص" بعنوان(لغة ما بعد الياء).

تقول الإمساكة بأن اللغة المحكية، المفتـرض أنهـا جسم التواصل بين اثنين ، ما هي إلا سراب تواصل، خديعةٌ بمعنى من المعاني. وهم. أما اللغة "القادرة" على وصل اثنين إلى بعضهما، فهي تلك المولودةُ خارج دربةِ اللسان وتسلسل الحديثِ ومنطقيتِهِ. هي "اللغة" التي "تقول" لا.. لتجعلَ قائلَهـا مفهوما، بل محسوسا به. لا.. لتجعلَ متلقيها فاهما للأخر.بل متحسسا إياه . هل معنى هذا أن اللغة أداة تعطيل ؟

نعم ولا.

نعم، لأنها ليستْ نتاج ذلك البركان بحممِـهِ الفـوارةِ داخل الروح. لأن اللسان الذي " يترجمها " ليس من صـاحبِ السر المتفتقِ في جوهرِ الإنسان، والذي يشرحه إلى شـرائح من وجعٍ وتوقٍ إلى "الآخر" ، مدفوعا بقوة الـ"حاجة" إليـه كي يكلمه. كي يكمل نقصه. كي يصحح تلك الـ ـ"غلطـة" الفالتة من مسؤوليةِ أحدٍ. لكنها، مع ذلـك ، لا تنقلـب إلـى "صوابٍ" إلا إذا اتصلَ أحد بروحِ حاملها، وطبع على كتفـهِ قبلاتِ الأصابعِ وبصماتِ الشفتين.

عندها، تنداح طيور النفسِ وتحوم في فضاءِ الكائن، ترفرفُ في سماءِ عينيهِ لتحكي "عنه" قولاً غامضـا تعجـز حيالَه الكلماتُ المنطوقةُ أو المكتوبة.

هو لا يقولُ، لأنه لا يعرفُ ماذا يقولُ، وكيف.

هو لم يعد يعرفُ كما كان "يتوهم" أنه يعرف.

هو باتَ يدرك أن "الآخر" أخذه.

أجلْ.

أخذَهُ دون الاستعانةِ بأي لغةٍ مسموعةٍ أو مرئيةٍ.

فالأصابع أمسكتْ بروحهِ الحاطةِ على كتفهِ. والشفة تذوقتْ ملح التعطشِ القديمِ قدم الولادةِ إلى أرضٍ تضمنها حلم

مستور عليه - إذ ما كان ممسكًا بحدوده -، وها هي الشفةُ تزيح له ستره لتبين لقلبهِ أنها وصاحبتها الأرض وقد تعرتْ لتدخلَ فيه هبوطًا لغيمةٍ تاقتْ إلى تربـةٍ عطشـى أدمنـتْ انتظارها حتى توحدتْ معها.

كيف للغةِ أن تكون غير أداة تعطيلٍ ما دمت أعجـز عن أن تنقل "روح" هذه الظلال التي ذكرتها؟

وكيف لها أن تكون غير حقيقتها الناقصة ما دامت لم تفارقْ - عبر تلك الظلال - نقطة الشروع في البوح؟

ولكن: اللغة ليستْ أداة تعطيبٍ: لأن العـالَم يسـير سيره اليومي: واليومي عادي: والعادي لا يكون إلا بـأدواتٍ على مقاسِهِ وضمن مواصفاتِه: واللغةُ تفي بالغرضِ عند هذا الحدّ. أليس كذلك؟

أسأل: على أرضِ أي لغةٍ يتم نهوضنا؟

2

قليلةٌ هي المراتُ التي استوقفَتْني فيها كلمةُ "الألفة".

فأنا، مثلي مثلَ الآخرين، أمـر بحالـةِ الألفـةِ فـي علاقاتي الكثيرة، أو القليلة، دون أن أتوقفَ عندها لأتأملَ في ماهيتها، أو حتى أن أحاولَ "فهم" أو "الشعور" بكيفية تكوّنهـا في داخلي.

نظريا: ليس ثمة ألفة خارج العلاقةِ بين اثنين يقفـان على "أرضيةٍ" ما، يشتركان في صياغتها، أو عثرا فيها على ما اكتشفا أنهما متفقان عليه .. بصورةٍ أو بأخرى.

لكنني، الآن، وضمن ما نعيش من حالاتٍ ليس مـن الضروري تسميتُها (فالأسـماء مضـللة أو منحرفـة عـن مسمياتها .. غالبا)، وجدتُ نفسي أتوقـفُ لأتحسـس كيـفَ تتشكّل هذه الألفةُ المتولدةُ الناميـةُ المتناميـةُ بيننـا كـأفرادٍ ومجموعات. كيف تقوم الكلماتُ البسيطةُ، وحتى تلك التـي تبدو ساذجةً للوهلةِ الأولى، بإيصال أعمقِ المعاني أو أكثـر المشاعر تعقيدا، إلى إدراك الواحد منا فورا وبـلا اسـتدعاء لأكبر مخـزونٍ مـن "الـذكاء" .. أو الاسـتعانة بحصـيلة "الخبرات" المتحصلة من تجاربٍ سابقة.

كلمة عادية تكفي لتكون " ناقلاً" أمينًـا لـ ـ "كُليـةِ" الشعور المرادِ إيصاله.

ولكن : مئات الكلماتِ الشبيهةِ ، لا بلْ الأكثر بلاغة، تكون عاجزةً عن هذا النقل، في حالاتٍ أخرى، لدى آخرين.

أسألُ نفسي : لماذا؟

وأجتهد : لابد أن للألفةِ دورا أساسيا في هذا. الألفـةُ بمعنى ـ لا حِظِي هنا بأنني بت أرى أن للألفةِ معاني عديدة تبعا لتعدد الأوضاع، الحالاتِ، الأشخاص: لا بد أن للألفـة دورا أساسيا بمعنى القدرةِ على بنـاءِ اسـتنتاجاتٍ فوريـةٍ، وغالبا ما تكون صادقةً وصائبةً، للجملة الناقصةِ التي يقولها أحدنا.

فكما قلتُ سابقـًا: إن اللغة ليست بأداة إيصالٍ مناسبةٍ ضمن حالاتٍ معينةٍ وخاصة. إذن؛ فنحن نسـتعين بكلمـات ومفردات اللغة من أجل رسم الظـلال . أمـا "الأجسـام" و "الأصول" فلا يمكن أخذها عبر وسائط ليستْ من طينتهـا .. أو جوهرها .

من هنا تحديدا تجيء اللاألفةُ لتغطي نقصـا بنسـبةٍ معينةٍ في اللغة ، ولترفع من مستوى إدراكنا لبعضـنا عبـر كلمةٍ ساذجةٍ.. أو عادية.

أنتِ تقولين ، يوميا كثيرا من الكلماتِ العاديةِ التي لا "تقول" شيئًا محددا لا لبس فيه . لكنني ، مع هـذا ، أجـدني مدركًا تمام الإدراكِ لجوهر ما تريدين إيصاله . وبعيدا عـن ادعاءِ الذكاءِ، أو القدرةِ الذاتيةِ الخاصةِ، أقولُ بأنني لا أصلُ

إلى هذا الإدراك إلا بسبب هذه الألفة النامية بيننا. هي التـي تنسج قوى ما تتيح لكلٍ منا إدراك الآخر على أفضل ما يكون الأدراك.

قد تأتي الخبراتُ المتحصلةُ من تجاربٍ سابقةٍ لتكون عاملاً مساعدا لكنها، في رأيي ، ليستْ أكثر من عاملٍ ثانوي باهتٍ وضعيفٍ بمعزلٍ عن الألفة .

هل " تحسستُ " أنا ما كنتُ قد بدأتُ فيه فـي هـذه الكتابة؟

لا أعتقد .

يا إلهي : كم هي اللغة / الكتابـة ظـلالٌ لظـلال " الأجسام " و " الأصول " الكامنةِ في داخلنا !!

رؤيا الوجع والجدار

كثيرا ما تُصادفُ وجعك واقفًا هناك، علـى قارعـةِ الطريقِ ـ كما يكتبون ـ ، يحدق بك ثم يشيح بوجههِ عـن وجهك ، ويندس في جسدِ الجموعِ المتجولـة الدائخـةِ فـي شرايين المدينةِ، يصيبك الذهولُ وتشاك الدهشةُ . (كيف؟!): تهتفُ لنفسك سؤالاً تصبه ساخنًا على تشققِ روحك الظمأى ، فتُطَقْطِقُ شاهرةً عشطَها إلى إجاباتٍ عصيةٍ على الامتلاك.

هي الإجاباتُ القصيةُ .. النائيةُ .. الراحلةُ إلى منابع إناس لا يطلبونها . وهي الإجاباتُ الهاربةُ من تلهفِ الأصابعِ التي أتعبها التفتيشُ عنها أو التلويح لها أن تأتي ولا تأتي.

أنتَ هنا .. ووجعك هناك يرصدك دائما ، وتمامـا، ويجعلُ بينك وبينه مسافةً أنت لا تقطعها ، وهو لا يلغيهـا أو يختصرها حتى. (آه): كم هو رهيب هذا الوجع، وكم هو لئيم وسيد في لعبةِ المحطاتِ المتلاحقةِ كخفقاتِ القلب. والمتساوية في التابعِ كأعمدةِ البرقِ من نافذةِ قطـارٍ والدائمـة ديمومـة الرحيل الأبدي من محطةِ سفرٍ إلى محطةِ سـفرٍ لا ينتهـي بسواه.

تتبعه بلا هوادة تُقرر أن تقبض عليه وأن تسـتوجبه لكنك ، وبسببٍ من يقينك باستحالة ذلـك، يتواضـع هـدفك وتكتفي بإبقائهِ في مجال رؤيتك لعلك بذلك تتجنبه أو تتجنب ضرباتهِ المباغِتَة: ضرباته المباغتـة المحكمـة: ضـرباتُه المباغتة المحكمة الأليمة: تلك الضربات التي تفـتح خابيـة البكاء وتعري فضاء الروح التي أنهكها تجوالك الطويلُ بحثًا عن كائنٍ يشبهك كثيرا عن كائنٍ لا يغادرك ولا يأتيك . عن كائن تطلبه ويطلبك، لكنكما لا تلتقيان!

يتصدع جدارك الأخير ، وتتهاوى أبـراج قلاعـك وتتساقطُ مثل مكعباتِ الورقِ، متناثرةً في الغبار ، محدِثةً تلك الرهبة المتناسلة من رحم الصمت ، والناغلـة فـي لحمـهِ المرفرِف فوقَ رأسك طيرا أبلغ صدقًا من "الفينيقـي" وأقـل ضجيجا من سكتة القلب.

تصرخ : (وجعي بعثٌ دائم . وجعي وجود لا يـراه غيري).

ثم تلاحقه ، مندسا أنتَ الآخر فـي جسـدِ الجمـوع المتجولة الدائخة في شرايين المدينة، وترمي إليـه بسـؤالك اللاهثِ بين رقاب العرق: (لماذا تهرب مني وأنا صاحبك؟)

من فوق أكتاف التصادمِ: (أنت لـي فكيـف انسـللت منـي وفارقتني؟) غير أن المسافة بينكما تظل خاويةً من الجـوابِ ترسلُ له سؤالك عبر أصابعِ الوهم المتهدلة: (سـأجتمع بـك يوما. فِلِم لا تريحني وتقفُ؟) غير أن المسافةَ بينكما تفغر لك فمها الفارغ، الفارغ تماما من أي ظـلالِ لأي شـيء .. أي شيء!

هكذا يكون لا شيء يخْدشُ ، لا شيء يخْدشُ لا شيء فترتد الأظافر إلى جسمك تعملُ فيه وتعملُ ترتد أظافرك إلى جلدك تخدشُه، وتحفر فيه، لكن لا شـيء لا شـيء يصـدر صوتًا سواك أنتَ الموجوع المتوجع من مسافةٍ تفصلك عـن وجعك الراصد لك. المشيح عنك. الذاهب وإيـاك فـي كـل محطاتك .. محطات سفرك .. سفرك إليـه هـو القَصِـي ، والنائي ، والراحلُ إلى منابعِ أناسٍ لا يطلبونَه. والهارب من تلهفِ أصابعك التي أتعبها التفتيشُ عنه، أو التلـويح لـه أن يأتي ولا يأتي المنادية عليه أن يقترب ولا يقترب.

تخدشُ نفسك بنفسك .تخدشُ. يكون السيدان وتكـون الرؤيا:

سيد يبقى

سيد يمضي بين الرصيف

وبين المقهى

الأول: لا تسأله المقاعد عن اسمه لا تستحثه الزوايا أن يركن فيها عينيه لا تزحف السجادة بطيئة لتعتلي ساقيه لا تصمتُ الجدران أبدا ، عن ثرثراتها عن أحزانه

متيقظ : لأن الاسم غاب مشرعٌ لأن البصـر ضـاع راكض : لأن الحركة مستحيل . أخـرس : لأن الأشـياء ـ تحكي.

الثاني: ظلت دهشته معلقة فـي الهـواء ومضـى . مضي بذارعين متدليين وخطواتٍ مترهلـةٍ إنـه ينجـرفُ ، كورقةٍ مستعملةٍ ، ويعبر الطريقَ الذي لا ينتهي .لا ينتهي .. سوى بذلك الجدار!

يصطدم بالجدار. تصطدم أنتَ بالجدار ، وتراه إنـه وجعك أنت .

وهو السيد الكائن فيك . شبيهك حدّ التطابق الـذي لا يغادرك ولا يأتيك الذي تطلبه ويطلبك لكنكما لا تلتقيـان. لا تلتقيان إلا هنا، على خشونةِ الجدار، ثم تفترقان مـن جديـدٍ كأنكما:

سيد يبقى

سيد يمضي بين الرصيف

وبين المقهى

أولُكُما وجع وثانيكما نصفُه الآخر. نصفه الـذي لـم يكتمل .

***

هبطتُما من خشونةِ الجدارِ، وذهبتُمـا فـي ظـلال الأشياءِ تفتشان عن جسديكُما.

عمان

١٩٨٩/٩/٢٢

مطرٌ ، لكن النوافذ .. !

هل نعود مثلما كنا قبلَ أن نخرج ذاهبين؟

هل بمقدورنا (حتى لو رغبنـا أو أردنـا) أن نـرى الباب الذي خلفناه وراءنا حين غادرنا الغرفة هو بالباب ذاته عندما نؤوب؟.. أو أن الغرفة بأثاثها المستكين القليل هي ذات الغرفة بزواياها الأربع وسقفها الوحيد؟

ثمة الاختلاف لأن ثمة التغير لأن ثمة التحـول لأن ثمة الانحرافِ لأن ثمة التبدل ولأن ثمة الزمن الجاري بينما المكان ثابتٌ على حالهِ يتلقى تقلباتِ أحوالنا بقلبٍ من حجـر أو إسمنت ـ لا فرق.

شفيفٌ هوالحزن كما ينبغي له أن يكون وكما يليـق بكل ما هو صادق. الحزن حالةُ صدقٍ خالصةٍ ومصفاةٍ. حالة توجد مقطرة ، تماما مثلما هي الدموع؛ والفرق بينهمـا (أن ثمةَ فرق) أن وجها كان صلدا كتيما جمع مـدخرات عمـره كلها، ثم جعلها تذيب بحراكها الحر شمع قناعةِ القديم، فكـان أن تفتتت الصلادة ونز القلب بما أثقله . فأنصتَ الوجود إلى صوتٍ كالنشيج.

هل للنشيج صوتُه ، أو هل يملك النشيج صوتًا؟

لا أقدر على مجاراةِ السائدِ فأوافقُ على أن صوتًا - وإن كان مختنقًا متقطعا - هو علامة النشـيج ولا أقـدر ، كذلك ، على تفسير تمردي هذا إلا بالإنصات إلى لغةٍ يرددها داخلي تتأبى الكلماتُ المفهومةُ على إحالتها إلى رموز نتفـق بشأن معانيها غير أن صوت النشيج - الصـوت الحقيقـي للنشيج الحقيقي - لا يكون خارج الصمت .

يا للصمت من حقل كـلام خنقتْـه أسـيجةُ اللغـة، وأرعبتْه قوى الفهمِ المنهكة ، وأخرسته ألسنةٌ لا تجيد سـوى محو الحضور بلعق صدأ الذاكرة وغبارها يا للصـمت مـن شاهِدٍ على أن كل الكلام باطل الأباطيل، وأنه وحده الـذي يختزن المعنى - معنى النشيج الأبكم.

أدعي أن للحزن مذاقه المالح وأدعي أيضا أنها ليست ملوحة البكاء بقدر ما هي بلوراتِ الترابِ وقد تميعـت فينـا منتشرة في الدم يضِخها قلب تقل في الأسى لأنه كـان قـبلاً مفطورا على المحبة ثمة آصرة لاحمة تصلُ الأسى بالمحبة ، وما بين هذا وتلك ينسرب الملح في الآصرة الرابطـة لهمـا كأنما في فعله يحول دون فسادها .

نحن ملح الأرض ونحن ، أيضا وأيضا، ملح بعضنا بعضا ـ إن افترقنا فسدنا أو فسد معنانا ، وصار للعالِمِ مذاقُ الفراغ .

ثقيلٌ هو الفراغُ ؛ إذْ يزوغُ من دلالتهِ الأولـى حـين يهبطُ في القلب، فنمتلئ به بينما يتخلى الكون عـن أعمدتِـه ليميلَ قليلاً .. قليلاً فاقدا رشده ومانحا أيانا عتمـة الهاويـة داخلنا ...

***

هل ثمة سقوطٍ دون أن يكون ثمةَ ثقل؟

الأثقالُ في الداخل ـ داخلُ من يسقطُ ؛ لذا فإن لكـل سقوطٍ معناه الذي يستقيهِ من معنى صاحبهِ . ولكن ، من مِنا يسبقُ الآخر ليصلَ إليه : نسبق نحن لنفوز بمعنانا أم يسـبقُنا المعنى فينالُنا قبل أن نسقطَ معا ؟

غير أن صدى الشك يتردد ويردد متفاصحا: نحـن الذين نحرك المعاني على الكلمات. نحن الذين نمنح الكلمات معانيها عبر أنفاسِنا ومن خلالها ـ إن كان ثمةَ معنى نختزنه فينا.

وكذلك : الكائن الفاقد للمعنى كائن فاقد لمكانٍ له في الكون ـ فاقد لعلامةٍ فارقةٍ وسط الآخرين .

يا للسخرية ! هي مسوح الحكماء نرفل بها كل يـومٍ .. واهمين؛ ليجيء الولد (الولد أيها) مشيرا إلينا وهو يصرخ كاشفًا سرّنا البليغ: "إنهم عراة ! إنهم عراة !".

***

هل نعود إلينا قبل أن تخرج علينا الأماكن لتغرينـا عنا أكثر؟.

هل نقدر أن نكون كما كُنا .. أو كما نبتغي ونشتهي : فلا باب نخلفه وراءنا وقد أوصد : ولا غرفةٌ ضجرتْ من ظلالنا التي نسيناها فيها : ولا مطر بلا لونٍ يسقطُ على نافذةٍ غير نظيفة ، فيكتمل مغزى أن الصمتَ لا يقبـلُ الكلمـاتِ أبدا؟:

من قال هذا .. يوما ؟

٢٠٠١/٢/٢

بالرصاص قبل التلوين

١ : آخرون

يدخلون حياتي ويخرجون،

كأني باب أو مكان. كأني غرفةٌ في فندق ، وليسـوا غير نُزلاء يتركون في مخلفاتهم أو سِقط متاعهم ، ويرحلون.

دخلوا إلى وخرجوا منـي ، امـتلأتُ بهـم لوقـتٍ أحسستُ خلاله أنني تحققتُ فعلاً حققـتُ ذاتـي ، مـثلاً، أو أنجزتُ جزءا مني لكنهم خرجوا هل ُأفرغتُ حقًا ، أم أننـي ما عدتُ أنا ، أم اقْتُطِعتْ مني بعض اكتمالاتي السابقة؟

إني أسألُ وأحار : هل يمكن لي أن أكتملَ يوما، في الوقت الذي أخسر تحققاتي الأولى ؟ كأنني جدار كلما ارتفع وطالَ، أكلتْه ريح الوقتِ ونالتْ "أرضةُ " القلق مـن بِنْيتِـهِ ونغلَ فيه عصيان النوم.

قالتْ لي ذلك. أو ربما ، ربما ، كنتُ أنا مـن قالـه على نحوٍ مختلفٍ في وقتٍ آخر . ثمةَ الكلامِ إياه وإني أذكره حرفيا:

"كلُّ شيءٍ هو لا شيء تماما مثلما ليس ثمة وجـود لواقعةٍ تشهد على انتفاءِ أي شيء".

آهٍ ! أرباحنا هي خسائرنا.

نظرتُ إليها ، وقلتُ لنفسي : " ليتها لا تقول ".

آه خسائرنا هي أرباحنا.

ثم قلت أنا:

" ليتهم يعلمون ويدركون "

"من ؟ "، قالتْ.

"هم."

بعدها ، أخذتُ أُردد حين رأيتُ في عينيها اسـتفهاما جديدا:

"هم، هم، إنهم هم .. كما تعرفين."

.. أكانت تعرف حقـًا؟

كانت تدلفُ إلى داخلها، بينما سحابةٌ كثيفـةٌ تغلـفُ وجهها الذي ارتخى في ما يشبه الغفوة.

٢: الطفو / الانطفاء

سألتُه بعد انقطاعٍ لم يطيقاه أو يصبر عليه كثيرا:

"كيف أنت؟ "

فأجاب بسرعةِ الطلقةِ الجاهزةِ، مندهشًا، فيما بعـد، بكيفيةِ صياغتِهِ للحالةِ التي يعيشها:

"إني أطفو على الأشياء"

(كان قد ضحك بمرارة، مسـتدركًا؛ إذ قـال ذلـك باللهجة المحكية "طافي" ، وأوضح ما كان واضحا لديها ولا يحتاج إلى تفسير: لا أقصد أنني منطفئ .. بل طاف).

.. هو يعيد النظر الآن ويتساءل: " أكنت، في حقيقة أمري، طافيا أم منطفئًا ؟"

كانت الصورةُ الوحيدةُ التي ارتسمتْ خياله، لحظتها، لا تتعدى هبة دخان رمادي غامقٍ تطفو، نصف خفيفةٍ ، فوقَ العالم.

٣: درجة الصفر

تتساقطُ حركاتُ الناسِ كأشياءٍ تخلع عنهـا قشـورها الزائدة عن الحاجة، أو تلك التي تيبسـتْ تمامـا ، فـذرتها الريح، حركاتٌ لم تعد، في تخبطها ، تعنـي شـيئًا خـارج أشكالها الاعتباطية، تكتفي بالشكل والهيئةِ والقوامِ، محتفظـةً بها، لتستغني عن المعنى ـ فلربما يكون أصحابها قد تساءلوا إن كانتْ ثمة معانٍ تبقتْ للأشياءِ وللعالم. أو إن كانتْ ثمـةَ معانٍ ما زالتْ تلتصقُ بهم هم أنفسـهم : الـذين يتحـدثون بمرارة فناجين قهوتهم الفاترة، ويعيشـون بخدعـةِ حيـاة ،

ويتناسلون بحمى المشاركةِ المؤقتةِ، ويحبون بما يزيد عـن درجة الصفر بقليل.

٤: الظلال

لا أرى من الإنارةِ سوى ظلالها ، أو ، بـالأحرى ، أحس بالظلال تلامس جِلدي بما يشـبه الحـرق الطفيـف. وأشعر، في داخلي، أن ظلمةً دامسـةً تتبـدد رويـدا كلمـا انزويتُ، بعيدا عن وضوحِ الإنارةِ المباشرةِ، وتمركزت لائذًا ببقع الظلال.

الظلالُ مساحةُ أمان.

الظلالُ أسِرةُ الإغفاءاتِ المطمئنةِ ، والنـوم بعينـين مغلقتين ـ لا بعين واحدة، بينما الأخـرى مفتوحـة تنتظـر خطرا ما .. أو تتوقعه.

الظلالُ بطون نساءٍ أِلفْنا طراوتهن الناعمة، فتركنـا رؤوسنا هناك تتوسدها لنغفو قليلاً .. طويلاً؛ ثم نفيق ، مـن بعد ، لنعثر علينا وقد هبطنا إلى زاويةِ الخشـونةِ الحـرج ، ومنبت الفخذَين الراسيين، حيثُ تبدأ منهما رحلةُ البحث عـن حقائقنا الضائعة. أو هي ، أحيانًـا، حقيقـةُ ضـياعنا التـي نسيناها.

٥: رجلٌ في العراء

عراء ناشفٌ تحت سماءٍ رسـمتْ بقطعـةٍ طبشـورٍ غليظةٍ ـ

وهناك كانتْ الشجرةُ النحيلة.

أغصانها تهفهفُ بأوراقها نصف الخضراء، يحركها هواء حار، فتتراقص ظلالها المنفرشة علـى الأرض ، فـي الوسط يقف الرجل ـ يستند على الجذع بذراعه الممتدة على طولها ، فيبدو مائلاً على نحوٍ واضح.

هكذا تنفرشُ الظلال فوقه وتتراقص حرارةُ الهـواء تجفف عرقه ، والظلالُ تخففُ وطأةَ الشمس.

غير أن العراءِ يواصلُ امتداده الناشفَ حتى يتصـلَ بزرقة السماء الباهتة: تلك السماء التي كلما تحرك الهـواء ، تساقطَ نثارها، وإمحت في الأعلى خطوط الطبشور الغليظة.

٦: ذاك العشاء

كان يقول لي:

"إن مت أنا، فمن سيسير في جنازتك يا صـديقي ؟ من سيكتب نعيك ويرثيك في الجرائد؟

قلت:

"الجرائد التي ستفرشها في المساءِ لتأكـلَ عشـاءك عليها؟"

"أجلْ. لكن هذا ليس المهم."

فسألته: "وما المهم إذن؟"

رفع رأسه نحو السقف ، وقال بشفاهٍ ترتجفُ بينمـا عيناه تتنحيان عني:

"أن أحتفظَ بحقي في أن أحزن عليك."

تماكرتُ :"تحزن علي؟"

فاعترفَ ببراءةٍ : "بل علي أنا"

.. لم أعاق بعدها. قسمتُ بقية الرغيـفِ المتحبـر ، ودعوتُه لأن يتناولَ مني ما يكفيه حتى اليوم التالي.

كان العشاء قد برد فوقَ ورقِ الجريدة.

٢٠٠١/٩/٢٢